سنوات الأشرفية...

حين سقطت تلك القذيفة في السيوفي، بالأشرفية، تراءى كأن قذيفة واحدة تكفي لحمل ذاك العالم على التداعي. ذاك ان سكينة الأشرفية ترقى الى علة وجود، وأهلها كأنهم لم يوجدوا على هذه الأرض الا لكي يعيشوا في سكينة. وبدا سكان بنايتنا تحديداً يشيعون قوماً مطرودين من فوضى عارمة تقع في الامكنة النائية، والامكنة كلها، على نجو او آخر، نائية عن الأشرفية.

ولم يمض غير يومين او ثلاثة على سقوط القنبلة حتى رد أهل البناية شاهرين تفسيرهم لما جرى. فقد قالوا ان في الحي طبيباً شيوعياً يوجه العمليات العسكرية في المناطق المسلمة، وبدل المسلمين والفلسطينيين الى النقاط التي ينبغي قصفها، وعندما حاولت ان اجادل احد ثاقلي الرواية، مذكراً اياه بأن الطبيب المذكور تجاوز الخامسة والسبعين، يكاد لا يقوى على المشي، بادرني بأنه «شوهد» ذات مرة يقفز من سطح بناية الى سطح آخر وفي يده بندقية يمارس منها القنص «علينا».

يومذاك كانت الحرب لا تزال احتمالاً. وكان رئيس الحكومة رشيد كرامي يوالي التوقيد على ان «الجولة الرابعة» لن تقع. بيد ان الاجواء التي جعلت تدلهم، وكنت بدأت عملي للتو في جريدة «السفير»، حملتني على الاستقلال عن أهلي والانتقال الى شقة في المنطقة الغربية من بيروت. فحينما ازفت الجولة الرابعة وانتقل الأهل، بدورهم، الى الشمال، اقتحم المسلحون الشمعونيون بيتنا وبيت خالتي، في البناية إياها، وخلعوا البيتين وراءهم صحراوين قاحلتين. وما لبثت السنة في الحي ان تناقلت رواية مقادها العثور على زيّ فدائي في بيتنا. وفي اغلب الظن، كان المقصود ذاك القميص الكشفي الذي حرص أخي على الاحتفاظ به وقد زيّن بأوسمة ونياشين ملونة مبهرجة. وهي قصة اعادت تذكيرنا بما حصل في ١٩٥٨، في الاشرفية عينها، حين حضر مسلحون قوميون سوريون الى بيت خالتي فاقتادوا زوجها سجيناً معصوب العينين وأبقوه لايام في ضيافتهم. وتردد يومها حجة مؤداها ان زوجته «تطبخ لمقاتلي البسطة»، كما كانوا يسمون من سميناهم «الثوار»، وترسل لهم الطعام تباعاً. وقد وجدت خالتي، التي لم تعرف بإجادة الطبخ، ان دحض الحبكة تلك لا يتطلب منها غير دعوة الراوي ومن يصدقه الى غداء.

كانت الاشرفية غريبة حقاً، تؤخذ بالشائعة والخرافة والمؤامرة. لكن تأويلها الاحداث لم يكن، على بساطته، بسيطاً. فسكان بنايتنا بدوا دائما كأنهم يستدعون الاساطير، صغيرها وكبيرها، كي تفتك بهم علها، وهي تهددهم، تطمئنهم الى ما هم راسخون فيه، متمكنون منه. وبالمعنى الذي رأى فيه برونو بتلهايم ان ضحايا المحرقة شاؤوا ان يموتوا اكتئابا واعتراضاً منهم على من بخلوا بإنجادهم، يتراءى كأن أهل الاشرفية، وأهل بنايتنا خصوصاً، اطفأوا عقولهم احتجاجاً على عالم تسيّره الفوضى. فهم مذ سكنوا هناك، في المعزل المتشاوف هذا، استقالوا من تفكير المسائل المجنونة، واجدين العالم مكسّرا جدا، وربما تافها بالتالي. وفي الحالات جميعا، احالوا المهمة هذه الى ما يصدر عن الشارع ورثاثته اللذين صارا، لا سيما في الازمنة التي يكتمل اختلال نصابها، مرجع التفسير والاجتهاد.

هكذا حل ضرب بريء من الامتثال لما «يُقال» اقام في صلبه شعوراً اقلّ لا تستوي له علاقة بالمعاني العريضة انتاجاً وتأويلاً.

فهم، على النحو هذا، اتباع ذاك المسيح الذي وضعه نيتشه في مقابل ديونيزيوس: فإذا عملت عبادة الاخير، الوثني، على تقوية الغرائز التي يتحقق بها الاندفاع الحيوي، عملت عبادة الاول، الواحد، على كبت الغرائز واضعاف الاندفاع الحيوي، ومن ثم الحياة ذاتها. ومعروف ان ذاك الفيلسوف الالماني فصّل، في كتابه عن نشأة المسرحية، ديونيزيوس على رب المسيحيين لانه إله ولد من الحياة لمجد الحياة، بينما جاء هذا منافسه من خارج، ومن على، فانزل وعي الخطيئة في روعها. وهو، في فعله هذا، قمع الشهوة الحيوية مضعفا فعل الانسان الفاعل، او في الحال التي نحن في صددها، الانسان القاهر.

واشرفيو بنايتنا إنما جعلوا ينفقون طاقتهم في امكنة اخرى. فأمكنة كانوا، ومن غير تعب، يستمعون ويعدون ويفرّزون كل واحدة من دقات الساعات المعلقة على جدران بيوتهم، مميزين بين الدقة والدقة، مستأنفين الحياة، والحال هذه، بقليل من الكلام في غرفهم الصغيرة، ومكرسين انفسهم اباطرة للشكل اللائق والمظهر المرتب. فبسمة واحدهم تبقى هي نفسها، كأنما ما كان سبب الابتسام، بل كأننا ما كان سبب الغضب احيانا، فهي لا تغيب وتمحي لاننا «ينبغي» ان نكون كائنات مبتسمة علما بأنها لا ترتفع الى قهقهة لاننا «ينبغي» الا نقهقه.

أما هذا الانتظار الرتيب لانذار عالم يندثر فبقي محملا بقناعات خالدة، وفي الآن نفسه، طاهرة. وهم، في هذا جميعا، كانوا من المحافظة الى حد يصد عن كل جديد او بعيد تدوير الجديد في قديم مألوف. فما من شيء يفاجئ اهل بنايتنا الذين تصرفوا كما لو انهم خبروا كل شيء في عمر سري سابق واختبروه.

لقد تجمعوا هناك، هم وأسرارهم، في بيوت مدروسة يعرف فيها كل جزء من الاثاث موضعه الدقيق فيمكث فيه، حيث هو، كما هو، ما شاء له الله ذلك. حتى «عمو اوتري» (هنري) الذي كان لا ينتطع عن سكر ويوصف بالمحبط الذي هزمته الدنيا وقذفته الى ضفة العوز، لم يكن صوته قوياً ولا احتجاجه ملحوظا. ونحن كنا بينهم غاضبين، علنيين، بلا أسرار تقريبا، نتحدث جهراً ونُسمع اصواتنا قبل ان تتشكل في أفواهنا الكلمات. وكانت المفارقات تبلغ ذروتها حين يصل خالي أتيا من عكار، مصحوبا بشيخ او شيخين. فهو مشهد غير مألوف ولا متخيل، درج سكان البناية على معالجته بواحدة من ابتساماتهم المهذبة الغامضة وبترحيب متكلف بـ«مسيو شيخ»، على ما قالت احداهن مرة.

الفولكلوري

لكن الفولكلوري الذي كان يُصنع في الاشرفية ويغزو البناية من شارعها القريب بدا مختلفاً، وإن ظل سهم الأوهام فيه، هو الآخر، اكبر من سهم الواقع. ذاك ان حلاق الشعر، جميل، الذي اقام صالونه في كعب البناية، اشترى سيارة كديلاك سوداء اوقفها قبالة صالونه وقضى اوقاتاً طويلة ينظفها ويراقبها من الجهات جميعا، كما يدل الزبائن إليها بتباه نافر. إلا ان السيارة الفخيمة لم تتزحزح من مكانها منذ اوقفها فيه لانها «لا تمشي»، كما كان يقول. وهو اذ كان يشير الى عجزها وتقادمها، لم يكن يبدي اي اسى يخفف من زهوه بها، ولا كان يقدم تفسيراً يعلل به وضعا شاذاً كشراء سيارة «لا تمشي».

وجميل كان مسرحاً متجمعا في رجل، كما انطوى على غرابة في علاقته بالاشياء تذكّر، في بعض الوجوه، بغرابة جوزيه اركاديو بوانديا، بطل غابرييل غارسيا ماركيز. فهو احرز، أواخر الخمسينيات، جائزة في قص الشعر إبان مباريات اجريت في ايطاليا. وقد علق على حائطه الجائزة وصوراً عدة له ولعدد من الرؤوس التي اعمل مقصه فيها. وكان كلما قصدته للقص سرد لي، فرحاً زاهياً، قصصه مع ماركو وجوليو وغيرهما من ايطاليين امتحن في رؤوسهم وعلق صورها، قبل ان يخبرني اي الرؤوس اختاره رأسا لي. فإذا قلت له: رأس ماركو، اجاب بأن رأس جوليو ما يلائم رأسي، والعكس بالعكس. غير ان الحوار معه لم يكن يتم بهذين الايجاز والسلاسة. فهو، بعد ان يسمع جوابي، يروح يحدق طويلا في رأسي، فيتقدم منه خطوة حذرة ويتراجع خطوة، ثم يميل يميناً ويتمعن فيه من جهته اليمنى، ويميل يساراً ويتعمق فيه من جهته اليسرى، ويلتف من ورائي وينظر ملياً هازاً رأسه على نحو مقلق تاركاً لشفتيه الصافرتين اللتين اتابعهما على المرآة، ان تعلنا عن يأس منقطع النظير.

وقد يتدخل في العملية هذه عنصر طارئ من الخارج، كأن يتشاجر صبيان، او يقترب صبي ينير ربيته من سيارة الكاديلاك. وكان جميل، في حال كهذه، يتركني والقص في شعري، او الصابون يغطي معظم وجهي، كيما ينفض الإشكال هناك. وعن سلوكه هذا لم يغب حس بالمسؤولية العامة ربما كان مصدره، فضلا عن الوجاهة اللبنانية المعهودة، ان جميل كتائبي ينبت زرّ الحزب على سترته ويزعم انه مسؤول بيت الكتائب في احدى قرى الجبل القريبة. وهي مهابة لم تكن يوميا كبيرة غير انها، مع اقتراب الحرب، تضاءلت في صورة محزنة. فعندما بارح جميل صالونه آنذاك، قاصداً الخارج، رجع مكسوراً مهاناً. فهو حين قال لمن يهم بضرب الثاني ان «اضربني أنا بدلاً منه»، استجاب الضارب دعوته ولم يترك له إلا الغضب العارم المكتوم. وتلك كانت المرة الأخيرة التي أزور صالون جميل، والمرة الاولى التي يقر فيها الكتائبي التقليدي الذي كانه بهزيمته امام جيل صاعد. والحال ان الاشرفية لم تكن عهدي الاول بالمدينة. ففي طرابلس كنت اكتشفت، في سن مبكرة، ان العالم ليس قرى، لكن الأهل كانوا انتقلوا، منذ ١٩٦٠، الى السكن فيها بعدما كانت خالتي، قبل اربع سنوات او خمس، اقامت هناك. وقياسا بالاشرفيين، لم تكن «اولاد ابو ادبب» في مقابل «اولاد أم جوزيف»، حسب النائية، الذي نسبها محمد ابي سمرا لسكان «بناية شهاب». فعلاقاتنا كانت، بلا قياس، ألطف من العلاقات التي رسمتها رواية «سكان الصور». وكنا، كذلك، ممتلئين خرافات مدجية بدورها، لا تحملنا على طلب التماهي او اشتهائه. وبالطبع، لم يتنه بعضنا اعضاء في ميليشيا الكتائب وبعضنا الآخر في ميليشيا يسارية - إسلامية.

مع هذا، لم يخت شعورنا الملح بالحاجة الى ترجمان. ففي ١٩٦٠، استعرضت الاشرفية سياستها على نحو مستغلق وتأكد لي، من دون ان افهم الدلالات المرتبة على ذلك، ان العدة التي املكها في تعقلهم ليست احسن حالا من عدتهم في تفسير انحيازنا الى «مقاتلي البسطة»، أو لاحقا، سقوط القنبلة فوق هدوئهم المطمئن.

فالمواجهة الانتخابية التي دارت عامذاك شطرت الاشرفيين بين بيار الجميل وبيار اده اللذين لا يسع العروبي الصغير الذي كنته التمييز بينهما. وقد شاع ان الاول، وهو من أسس الكتائب وقاد «الثورة المضادة»، مدعوم من فؤاد شهاب فيما الثاني من كميل شمعون. غير اني كنت اعلم ان بيار اده جُبل امبل اده الذي طلب، حسب ما كان متداولا، «ارجاع» المسلمين الى مكة. ثم ان سكان بنايتنا يؤيدونه، هم الذين اعرف ان كراهيتهم للعروبة وعبد الناصر أبعد من كراهية الحلاق جميل لهما. ولما كان بين هؤلاء عائلات رجعت من مصر بعد طول اقامة، بدا حقدها على الزعيم المصري وتأميماته مبثوثاً في هواء بيوتهم كصاحب عاطفة ادنى. فكان، مثلا، يبادرني بالسؤال عن «الجزائريين»، قاصداً اولئك الذين سولت لهم نفوسهم رفض عرض مقدم لهم بأن يصيروا فرنسيين. وبغض النظر عما كنت اجيبه به، كان ينهي حديثه المرفق بواحدة اخرى من بسمات الاشرفيين، بأن ينصحني بالكف عن عبث طفلي كهذا. ولئن استفاد غابرييل من فارق السن وواجب الاحترام الذي يمليه علي، بقي ان حديثه عن الجزائريين ومن يشبههم كان يوقعه في مأزق تعبيري. ذاك انه يتعفف عن التلفظ بالكلمات التي يعنيها، فيروح يستعيض عنها بإشارات في الوجه والأنف والبدين توحي الهدر واللاجدوى. على ان سلوك غابرييل المترفع، والمعزز بمظهر كولونيالي يكمله شاربان فرانكوبان صغيران، كان ينقلب، على يد صهره عفيف، استفزازاً صريحاً. فعفيف كان يقول لي، مثلا، ان ديغول سوف «يكسر رؤوسهم» وان «البكباشي» عبد الناصر مهرج اكثر منه خطيبا، ويتركني في سني اعتمل واتخبط. وصاحب الآراء هذه كانت آراؤه، في نظر أهل البناية، من صنف دامغ. فهو ملاّك زراعي يحتك بالفلاحين والعامة، ويصل به الاحتكاك الى حد التجرؤ على زيارة العراق، مرة في السنة، لبيع تفاحه هناك. هكذا بدا ما يقوله قيماً يستحق من «الماما»، وهي من هي في معرفة مصر أخت العراق، هزة رأس موافقة. فقد اكتشف عفيف، مرة بعد مرة، ان العراقيين كسالى، كما استنبط لعبة سحرية، ان لم تكن انثروبولوجية، في تصريف بضاعته بينهم تحاكي قابلياتهم العقلية ومستواهم الذهني. فهو يقف مشرفا على صناديق تفاحه الموزعة على رصيف بغدادي ويبدأ في اطلاق اصوات موقعة ومسجعة وإن كانت لا ترقى الى نطق وكلام. عند ذاك يباشر العراقيون الذين هناك رقصا متواصلا تعلو معه أجسادهم وتهبط بلا انقطاع. لكن عفيف الذي يعرف من مخيلة ما صورة الأفارقة الاوائل، كان يتوقف فجأة عن بث اصواته المختلطة ويدعو المتجمعين حوله الى شراء التفاح. أما هم فلا يملكون الا الاستجابة زرافات ووحدانا، فيشترون ولا يناقشونه في اسعاره، يكفيهم ان متقوتا ابيض يوليهم بعض عنايته.

لقد تفرد عفيف بتكلم العربية لغة تخاطب اولى، نظراً الى اصول يبقية حرمته اجادة الفرنسية. لكنه، للسبب هذا، جسّد الوسيط الاوثق بين البناية، وجل سكانها مسنّون، والعالم الخارجي. ذاك ان النتف اللغوي الذي انطوى عليه جعله بمثابة البرهان التجريبي الذي يعوز المقائق العامة. فعفيف، والحال هذه، كان اقرب الى علم الاجتماع الذي تستدعيه الحكمة كيما تمسي دياثة.

غير ان أهل البناية لم يكونوا وحدهم من يستخدم الفرنسية اداة تبادل اولى. فالاشرفيون، بمن فيهم الذين لا يجيدونها، درجوا على التحية بها، وعلى ترداد بعض كلماتها الشائعة المعنى كمثل «سافا» في معرض السؤال و«فوالا» في معرض التوكيد على إتمام العمل. و«تقليد» كهذا، لا يستثنى منه بعض اصحاب الدكاكين والسائقين العموميين، كان اشد تمكناً في البورجوازية الصغرى الجديدة نسبياً، كباعة الملابس، لا سيما منها النسائية، وحلاقي الصالونات الحديثة، واصحاب الباتيسيرات المتكاثرة والمكتبات الاجنبية القليلة، والموظفين والسكرتيرات. وهو، في الحالات جميعا، جعل اللغة معياراً طبقياً في ما بين الاشرفيين واشهاراً، في الآن نفسه، لهوية جامعة حيال من عداهم. لكن، في ما خصني، أنا الذي لا اتحدث اللغة تلك وأتمسك بـ«هويتي العربية»، تمسك الغريق بالخشبة، ألفت فرنسيتهم سببا آخر للشعور بغربة كان يجددها كل شمعون اسبوعياً.

فالرئيس السابق اعتاد، كل اربعاء على ما اذكر، زيارة منزل السيدة مود فرج الله الكائن في بناية تحاذي بنايتنا. وبالطبع كان الحي كله يحتفي بزيارة «الرئيس»، محييا مسلما، فيما ينتشر حرس قليل في الارجاء يصبغون بهيئاتهم مشهداً اجدنى مطرودا منه.

والزيارة كانت توهم الضيوف الكثيرين بالوجود في قلب العالم، وهي مسافة ليس عبورها صعبا على الاشرفيين، فقد استقروا على قناعات، قد يجنح البعض فيها وقد يعتدل البعض الآخر، إلا انها تبقى مثل الطبيعة الاولى ومثل لون البشرة. وكان للرسوخ المحافظ والعميق الذي ينفجر ايام الآحاد، ذهابا الى الكنائس وإيابا منها، نُصبه التي تهيمن على المجال العام بقدر ما تنشئه. ومن هذا القبيل كانت مدرسة الراهبات اليسوعيات وكنيستها، قبالة بنايتنا، واللتان تشكل معظم الحي من حولهما ومن حولهما دارت الطرق التي تربط اجزاءه. فمتى ابتعدنا امتاراً ظهرت كنيسة السيدة التي تربض على حي السيدة المستولي على عقدة طرق محورية. فإذا تقدمنا باتجاه منطقة مار متر، غدت مدرسة اللعازارية وكنيستها حدا للمنطقة يقرر علاقتها بما يتاخمها من احياء ومناطق. وكانت سطوة المدارس الدينية على المشهد كله تحيلها قلاعا مسورة، او محطات بداية ونهاية، ووصول واختراق، تحكم المكان والزمان، لا بالقوة طبعا بل بالخفاء واذعان الآخرين. فكأننا، في الاشرفية، امام مصغرات عديدة لكاتدرائية فلورنسا الشهيرة، «الدومو»، التي تنعقد المدينة من حولها وتدور، واقفة في مساحة مستطيلة تمسك عبرها بساحتي الدومو وسان جيوفاني المنفصلتين والمتقاطعتين في آن.

والخاضعون لتلك السطوة شاؤوا، بارادتهم المحضة، ان يبقوا قرية فيما بيروت تتأهب لان تغدو مدينة. فباستثناء «بروسند تشيكن» الذي افتتح اول السبعينيات في ساحة سأسين، فانضاف الى بضعة مطاعم صغيرة، قديمة وحرفية، لم يكن ثمة مطعم في الجزء الذي اعرف من الاشرفية. وباستثناء مقهى الحاج يوسف المهمل والمعروض للبيع، لم يكن هناك مقهى. صحيح ان الباتيسيرات التي كانت تزوّد البيوت بالكاتو والشوكولا، كانت تتزايد بتزايد بعض محال السندويش المعدة لافراد عابرين. لكن البيت والعائلة ظلا، في آخر المطاف، المصدر الملكي الذي لا ينازَع.

فأهل الاحياء الثلاثة او الاربعة المتلاصقة التي كنت اتجول فيها، او احتك بها في صورة او اخرى، يكاد واحدهم يعرف الآخر معرفة شخصية، واحيانا يعرفه حسباً ونسباً. ويوعى جمعي يتوخى البسيطة على الوافدين الى الاشرفية، ممن تقل بهم المعرفة ويكثر الجهل، كان يحضر النظام القرابي وتقنياته المعهودة. هكذا يوصف جان، صاحب الدكان، بـ«الزحلاوي» ويوصف جورج، السائق، بـ«البتديني» منما لا يليث ان يتأسس عائلات «شرعية».

وبالطبع ظل اسم العلم المحفوظ، كما تحفظ اسماء المدارس او السيارات او العقائد، اسم الحاج نقولا مراد، زعيم الاشرفية التقليدي الذي بدأ حياته قبضايا صغيرا قبل ان يؤول حكما في النزاعات الاهلية ومرجعا في الخيارات الانتخابية. ولما انتهى به الامر صاحب محطة بنزين تحتل موقعا مفصليا من الاشرفية، صارت لمحطته وظيفة اشبه بوظائف الكنائس في تعيين الامكنة، كما في التذكير باسمه وتخليده.

لكن بنايتنا، والاشرفية تاليا، كانتا، ايضا، سينما ادوتيس. فهناك تعرفت مبكرا، ولم أكن شاهدت الا قليل الافلام في طرابلس، الى صورة شادية وعبد الحليم حافظ، كما الى غاري كوبر وتوني كيرتيس وكيرك دوغلاس وليزابيت تايلور. غير ان السينما تلك التي كانت افلامها تختار بمزاجية تتحكم العشوائية بها، لم تعمر طويلا. فهي لم تستطع احتراق أهل البيوت، فلا اندمجت في الحي المتآنف ولا دمجها الحي فيه. ويخيل إليّ اليوم ان سكان الاشرفية البيتيين ما كانوا، في اكتفائهم الذاتي وفي التباس الواقع بالمتواقع في حياتهم وحساباتهم، بحاجة الى سينما، وربما جاز الافتراض بقدر من المبالغة، ان احكامهم المحلقة دوما لا تترك فسحة لقيلم عاطفي، او لجريمة دنيئة في فيلم وسترن. فالسينما ليست من تتجه إليه عائلات الاشرفية حين تبارح العالم الفعلي وهي ظانة انها في قلبه، لا يستزيدها البيت الا بيتية».

جماعات

وفي منازل شرقية قديمة، معظمها ذو فناء داخلي يحاكي الطراز الاسلامي المعروف، وبعضها تجاوره حديقة او تتعدد طوابقه من غير ان تتعدى الثلاثة حدا اقصى، تناثرت اسر قليلة «اصيلة» بقدر ما هي ارثوذكسية. وكان مما يتردد يومها ان المواريث الهابطن من جبالهم يتضاعفون في الاشرفية، بيد انهم يتجمعون بعيداً عنا قريبا من الرميل والجميزة. أما المسلمون فظلوا دائما في الهناك، في حي بيضون الذي لا يؤتى الا لماماً على ذكره، تنحو اللغة الى احذم كتلة واحدة وربطهم بمنطقة البسطة ربطاً حصرياً. وهو ما كان تقيضا تاما لرأس بيروت حيث اقامت عائلات ارثوذكسية اصلية واصيلة، هي الاخرى فالمنطقة المذكورة، وبسبب الجامعة الاميركية، انكسر فيها نظام السكن القرابي الذي ميّز العالم الاسلامي بعمومه، فكنت تجد في بناية واحدة «اصليا» من ابنائها جاراً لمهاجر من الجبل ولهاجرين من الخليج وباكستان ومتزانيا والولايات المتحدة، وهذا ما لم يستسغه الاشرفيون فحسبوه نقطة تفوق لهم في الاصالة المزعومة على ابناء طائفتهم في المنطقة التي يسهل الطعن بصفائها. وكان «طبيعيا» ان تنهض الحجة هذه على حقيقة لا تقبل الرد، مقادها ان عائلتي سرسق وبسترس، وهما من اعمل الغناء شفرته فيها، تقيمان هنا لا هناك.

ولم يستسيغوا، كذلك، النموذج الذي بدأ يرمز إليه شارع الحمرا وواجهاته وسينماته ومقاهيه وسحناته، حيث تنبليل «الاصلاء» وتخلط الاعراق ولا يعرف لاحد «رأس أب». لكن منطقة الحمرا شرعت تتسلل اغراء لا يسع شبان الاشرفية وشاباتها مقاومته. وكنت، بدوري، واحداً من الذين جعلوها، ومعها وسط بيروت، مقصد النهار فيما الاشرفية للنوم فحسب، عصية على الصداقات والمعارف.

وفي الفترة تلك ظهر شارع بدارو جاذباً جديداً، فتوسط مناطق المسيحيين ومناطق المسلمين الاسنّة مهم والشيعة واستحق اعتباره، الخادع كما تبين بعد قليل، تجسيداً لبلوغ وحدة اللبنانيين سوية متقدمة. وقد واجه الاشرفيون «الاصلاء» بشيء من الحيرة، المبل المستجد الى استئجار المكاتب هناك، فضلا عن السهر في مقاهي بدارو.

وما صح في المناطق صح في الاحزاب. فسكان البناية عرفوا شيوعيين وقوميين سوريين لكنهم تصوروهم سكان بلاد اخرى، والا فحزبيون مؤقتون وعارضون تتقاذفهم امزجة طائشة. وحينما كنت، قبيل الحرب، اقصد المكتبة لابتياع «السفير» و«المحرر» و«الحرية» وغيرها، كنت اتعرض لنظرات مستغربة تشوبها احيانا ابتسامات متسامحة بالمعنى الذي عهدته في مسيو غابرييل.

حيال تلك العوالم جميعاً، كانت بنايتنا والاشرفية تتبديان كذاك البيت الغائلي والريفي الذي هربت من شجره إما بوفاري الى زواج اشد اضجاراً. لكنهما أترتا، وكأنهما قرأتا رواية فلوبير الشهيرة، الا ينتهي الامر بهما الى تراكم الدين وانكسار القلب وقتل النفس انتحاراً، فتجمدتا في الصجر.

الفنان اللبناني مصطفى فروخ (١٩٠١ ـ ١٩٥٧): منظر من بيروت ١٩٣٦